Speech Acts in al-Kumayt ibn Zayd al-Asadī's Bāʾiyyah: A Pragmatic Approach in Light of John Searle's Speech Act Theory

Parvin Yousefi [1] | **Morteza Ghaemi** [2]✉ | **Seyyed Mehdi Masboogh** [3]

1. Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Bu Ali Sina, Hamedan, Iran. E-mail: p.yousefi@ltr.basu.ac.ir. http://orcid.org/0009-0000-2030-769x

2. **Corresponding Author**, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Bu Ali Sina, Hamedan, Iran. E-mail: m.ghaemi@basu.ac.ir , http://orcid.org/0000-0001-8139-1223

3. Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Bu Ali Sina, Hamedan, Iran. E-mail: smm@basu.ac.ir . , http://orcid.org/0000-0003-0739-982X

Abstract

This study is based on John Searle's Speech Act Theory, which regards language as a performative act capable of shaping social, political, and religious realities rather than merely conveying meaning. It offers a pragmatic reading of al-Kumayt ibn Zayd al-Asadī's Bāʾiyyah, highlighting its argumentative structure and its role within a politically and ideologically charged context. The poem is examined as a discourse in which language, power, identity, and ideology interact .The study aims to analyze how al-Kumayt employs Searle's categories of speech acts—assertive, commissive, declarative, expressive, and directive—to construct his political and ideological position and to transform the poem into a persuasive discourse that influences the audience. Using a descriptive-analytical approach within a pragmatic framework, selected verses are analyzed to identify the functions

of speech acts in meaning construction, argumentation, and audience guidance. The study also explores how rhetorical devices reinforce the performative force of these speech acts .The findings show that rhetorical devices such as simile, interrogation, and parenthetical objection strengthen the illocutionary force and persuasive impact of the poem, demonstrating the close integration of rhetoric and pragmatics in serving al-Kumayt's ideological vision. The study concludes that Bāʾiyyah is not merely a literary work but a pragmatic and argumentative discourse that reflects sophisticated linguistic strategy, highlighting the central role of speech acts in understanding the dynamics of classical Arabic poetic discourse.

Keywords: John Searle, Speech Acts, al-Kumayt ibn Zayd al-Asadī; *Bāʾiyyah* of al-Kumayt.

قيد النشر

الأفعال الكلامية في بائية الكميت بن زيد الأسدي
مقاربة تداولية في ضوء نظرية جون سيرل

پروین یوسفی[۱] | مرتضی قائمی[۲] ✉ | سید مهدی مسبوق[۳]

۱.القسم اللغة العربية، الكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة بوعلي سينا، المدينة همدان، البلد إيران ،البريد الإلكتروني: http://orcid.org/0009-0000-2030-769x. p.yousefi@ltr.basu.ac.ir.

۲. الباحث المسئول، القسم اللغة العربية، الكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة بوعلي سينا ، المدينة همدان، البلد إيران، البريد الإلكتروني: http://orcid.org/0000-0001-8139-1223 , m.ghaemi@basu.ac.ir

۳. القسم اللغة العربية، الكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة بوعلي سينا ، المدينة همدان، البلد إيران، البريد الإلكتروني: smm@basu.ac.ir

http://orcid.org/0000-0003-0739-982X

ملخص

تنطلق هذه الدراسة من نظرية الأفعال الكلامية لجون سيرل، التي ترى أن القول فعل إنجازي يمتلك قوة تداولية تؤثر في الواقع الاجتماعي والسياسي والديني، ولا تقتصر وظيفته على نقل المعنى. وتنبع أهمية هذا البحث وسبب اختياره من الحاجة إلى قراءة جديدة لبائية الكميت بن زيد الأسدي تكشف أبعادها التداولية والحجاجية، وتُبرز موقعها في سياق سياسي وعقدي مضطرب، إذ تمثل هذه القصيدة نموذجا مكثفا لتداخل اللغة بالسلطة والهوية والخطاب العقائدي. وتهدف الدراسة إلى تحليل كيفية توظيف الكميت للأفعال الكلامية بأنواعها الإخبارية والالتزامية والإعلانية والتعبيرية والتوجيهية، وبيان دورها في بناء موقفه السياسي والعقدي، وفي تحويل القصيدة إلى خطاب تأثيري يعيد تشكيل علاقة الشاعر بالمتلقي ويصنع فاعلية حجاجية ذات بعد اجتماعي وسياسي. يعتمد هذا البحث المنهج الوصفي-التحليلي ضمن إطار المقاربة التداولية، إذ يتناول تحليل الأبيات الشعرية في ضوء تصنيف سيرل للأفعال الكلامية، مع الكشف عن أدوارها الوظيفية في تشكيل المعنى، وتعزيز البنية الحجاجية، وتوجيه المتلقي، وذلك بالاستعانة بالأدوات البلاغية التي تسهم في تدعيم الفعل الكلامي داخل النسيج النصي. وأظهرت النتائج أن الأفعال الالتزامية تؤدي دورا محوريا في تثبيت مواقف الكميت وإبراز استعداده لتحمّل تبعاتها، ولا سيما في دفاعه عن آل هاشم ومواجهته للمواقف المخالفة، في حين تؤدي الأفعال التقريرية والتعبيرية والتوجيهية وظائف مكمّلة في بناء الموقف وتدعيم أثره في المتلقي. كما كشفت الدراسة أن انتقال القول من غرضه الحرفي إلى غرضه الإنجازي لا يحدث منفصلا عن سياقه التاريخي، بل يتيح للقول الواحد أداء وظائف متداخلة؛ فقد يتحول الإخبار إلى تثبيت موقف، والاستفهام إلى استنكار أو توبيخ، ووصف المعاناة إلى إظهار الالتزام بالموقف، والتذكير بالموت إلى التوجيه والاتعاظ. وأظهر التحليل كذلك أن القيمة الحجاجية للأفعال الكلامية تتعزز بتضافرها مع الوسائل البلاغية، ولا سيما الاستفهام الإنكاري والتشبيه والتعجب والتحسر، بما يجعل الأثر التداولي للقول نتيجةً لتفاعل الفعل الكلامي مع السياق والمقام والمتلقي.

الكلمات المفتاحية: المقاربة التداولية، جون سيرل، الأفعال الكلامية، الكميت بن زيد الأسدي، بائية الكميت.

مقدمة

تُعدّ نظرية الأفعال الكلامية[1] لجون سيرل[2] من المقاربات التداولية التي تنظر إلى القول بوصفه فعلاً ذا قوة إنجازية ووظيفة تواصلية، ولا تكتفي بدراسة صيغته اللغوية الظاهرة. ويتيح هذا النموذج تصنيف الأفعال الكلامية وفق أغراضها التواصلية، والتمييز بين الغرض الحرفي للقول والقوة الإنجازية التي يكتسبها في سياقه. كما يتيح مفهوم الفعل الكلامي غير المباشر تفسير الحالات التي تتجاوز فيها الصيغة الظاهرة للقول وظيفتها الحرفية لتؤدي غرضا إنجازيا آخر يحدده السياق، كأن تؤدي صيغة

[1] Speech Act Theory
[2] John Searle

الاستفهام وظيفة التوبيخ أو التحذير أو التعظيم. ومن ثمّ، يوفر نموذج سيرل إطارا مناسبا للكشف عن العلاقة بين الصيغة اللغوية والقوة الإنجازية والوظيفة التداولية للفعل الكلامي، ولا سيما في الخطاب الشعري الذي تتعدد فيه المقاصد ويتداخل فيه المعنى الحرفي مع المعنى السياقي. وفي الشعر العربي القديم، لا تقتصر قيمة النصوص على جمالياتها الفنية، بل تمتد إلى أبعاد تداولية واجتماعية وسياسية تبرز اللغة بوصفها أداة فاعلة في بناء المواقف والتأثير في المتلقي. ويُعدّ الكميت بن زيد الأسدي من الشعراء الذين وظّفوا اللغة الشعرية في بناء خطاب سياسي وعقدي يعكس موقفه من قضايا الحق والولاء لآل البيت. ومن هنا تبرز أهمية دراسة بائيته من منظور الأفعال الكلامية، إذ لا يؤدي القول الشعري فيها وظيفة واحدة ثابتة، بل قد يجمع بين الإخبار والتعبير والالتزام والتوجيه، وقد ينتقل من غرضه الحرفي إلى غرض إنجازي تفرضه طبيعة المقام والسياق. وتتمثل مشكلة الدراسة، بناءً على ذلك، في الكشف عن الكيفية التي تتحول بها الأقوال الشعرية في بائية الكميت إلى أفعال كلامية ذات قوة إنجازية، وعن دور هذه الأفعال في بناء الحجاج وتوجيه موقف المتلقي. وتهدف الدراسة إلى تحليل الأفعال الكلامية في بائية الكميت بن زيد الأسدي، لا لمجرد حصرها وتصنيفها، وإنما للكشف عن وظائفها التداولية والحجاجية داخل السياق الشعري، وبيان إسهامها في تثبيت موقف الشاعر السياسي والعقدي والتأثير في المتلقي. وتنبع أهمية الدراسة من أنها تتجاوز النظر إلى الشعر بوصفه منتجاً جمالياً، إلى بحث اللغة الشعرية بوصفها ممارسة خطابية تؤدي وظائف الإقناع والتثبيت والدفاع والتوجيه والتعبير عن الموقف.

وتعتمد الدراسة المنهج الوصفي التحليلي في إطار المقاربة التداولية؛ إذ تبدأ باستخراج نماذج الأفعال الكلامية من أبيات البائية، ثم تصنيفها وفق الأنواع الخمسة في نموذج سيرل: التقريرية، والالتزامية، والتوجيهية، والتعبيرية، والإعلانية. وبعد ذلك تُحلَّل كل حالة في ضوء الغرض الحرفي والقوة الإنجازية والسياق التخاطبي، مع تحديد وظيفتها في بناء الموقف الحجاجي وعلاقتها بالمتلقي. كما تُراعى الوسائل البلاغية المصاحبة للفعل الكلامي، مثل الاستفهام والتشبيه والتعجب والتحسر والتوكيد، بوصفها عناصر تسهم في تعزيز أثره التداولي والحجاجي. ولا يقتصر التحليل على الأفعال الصريحة،

بل يشمل الأفعال غير المباشرة متى أتاح السياق ذلك. وتسعى الدراسة إلى الإجابة عن السؤالين الآتيين:

١. ما دور الأفعال الكلامية في تشكيل البنية الحجاجية لخطاب الكميت بن زيد في بائيته، وكيف أسهمت هذه الأفعال في بناء موقفه السياسي والعقدي وإبرازه داخل النسق الشعري؟

٢. كيف يتداخل الغرض الحرفي والغرض الإنجازي في شعر الكميت، وما أثر هذا التداخل في تعزيز القوة التداولية والمعنى الإقناعي للخطاب الشعري؟

خلفية البحث

فيما يلي عرضٌ لأبرز الدراسات التي تناولت الأفعال الكلامية والتداولية في الخطاب الشعري العربي، مع التركيز على طبيعة مناهجها ونتائجها، وبيان ما تكشف عنه من جوانب لم تُبحث بعد، بما يوضح موقع الدراسة الحالية من الجهود السابقة:

تناولت دراسة عمارة الجداري (٢٠٢٤م)، «الفعل الكلامي في أطلال الشعر القديم: مقاربة تداولية»، الأفعال الكلامية في القسم الطللي من القصيدة العربية القديمة، وكشفت عن وظائف الأفعال الإخبارية والالتزامية والإعلانية والتعبيرية والتوجيهية وعلاقتها بالوسائل البلاغية وتأثيرها في المتلقي. غير أن تركيزها على القسم الطللي يجعل مجالها النصي محدودا بنمط شعري ووظيفة موضوعية محددة، دون التوسع في دراسة تداخل هذه الأفعال داخل خطاب شعري ذي موقف سياسي وعقدي واضح. وتختلف الدراسة الحالية عنها في تناولها بائية الكميت بوصفها خطابا احتجاجيا تتداخل فيه الوظائف الكلامية مع الحجاج والموقف السياسي والعقدي.

وتناولت دراسة خالد محمد فرج الوحيشي (٢٠٢٤م)، «جون سيرل ونظرية الفعل الكلامي»، الأسس الفلسفية واللغوية للنظرية، مع التركيز على الأفعال المباشرة وغير المباشرة ووظائفها التواصلية. وتتميز هذه الدراسة بطابعها النظري أكثر من التطبيقي، إذ لم تختبر النموذج السيرلي على مدونة شعرية تراثية محددة. وتستفيد الدراسة الحالية من جانبها النظري، لكنها تتجاوزه إلى التطبيق

على نص شعري تتشابك فيه البنية الإنجازية مع السياق السياسي والعقدي والحجاجي.

أما دراسة عزة أحمد مهدي علي (٢٠٢٣م)، «نظرية أفعال الكلام عند سيرل: دراسة تطبيقية في شعر عبد الله الوشمي»، فقد اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي لتصنيف الأفعال الكلامية في ديوان «البحر والمرأة والعاصفة» والكشف عن أغراضها الإنجازية. غير أن الدراسة الحالية توسّع مستوى التحليل، فلا تقتصر على تحديد نوع الفعل الكلامي، بل تربطه بالغرض الحرفي والقوة الإنجازية والسياق الحجاجي وموقع المتلقي، للكشف عن الوظيفة التي يؤديها الفعل داخل بنية الخطاب.

وبحثت دراسة بوركوة نورة وخلاف مسعودة (٢٠٢٢م)، «الأفعال الكلامية في قصيدة إلى التلميذ للشاعر أحمد سحنون»، توزيع الأفعال الكلامية ووظائفها الحجاجية والإقناعية وعلاقتها بالموقف السياسي والاجتماعي للشاعر. ومع اقترابها من الدراسة الحالية في هذا الاهتمام، فإنها تركز على قصيدة حديثة يغلب عليها الخطاب التوجيهي، في حين تنطلق الدراسة الحالية من نص تراثي تتداخل فيه وظائف المدح والرثاء والاحتجاج والتقرير والتعبير والتوجيه، بما يتيح دراسة تعدد الأغراض الإنجازية داخل الخطاب الواحد.

وقارنت دراسة مدلل نجاح (٢٠٢١م)، «نظرية أفعال الكلام بين الدراسات الغربية والتراث العربي»، بين تصورات أوستن وسيرل وبعض القضايا التداولية في التراث البلاغي العربي. وتتمثل قيمتها في بعدها النظري والمقارن، غير أنها لا تقدم تحليلا تفصيليا لقصيدة عربية تراثية بعينها، ولا تبحث في كيفية انتظام الأفعال الكلامية داخل بنية حجاجية متكاملة، وهو ما تتجه إليه الدراسة الحالية بالانتقال من العموم النظري إلى التطبيق النصي التفصيلي.

كما تناولت حكيمة بوقرومة (٢٠١٣م)، «نظرية الأفعال الكلامية عند أوستين وسيرل ودورها في البحث التداولي»، الأسس العامة للنظرية وإمكان تطبيقها على النصوص العربية. وتظل هذه الدراسة ذات طبيعة تأسيسية عامة، إذ تركز على صلاحية النظرية كأداة تداولية دون تخصيص تحليلها لقصيدة تراثية ذات سياق سياسي وعقدي محدد، وهو ما تتناوله الدراسة الحالية تحديدا.

وتكشف هذه الدراسات، في مجملها، عن اتجاهين رئيسين؛ أولهما دراسات نظرية انصرفت إلى تأصيل نظرية الأفعال الكلامية وبيان إمكان الإفادة منها في دراسة اللغة العربية، وثانيهما دراسات تطبيقية تناولت دواوين أو قصائد محددة، غالبا في سياقات شعرية حديثة أو ضمن موضوعات جزئية من الخطاب الشعري. وعلى الرغم من أهمية هذه الجهود وإسهامها في ترسيخ المقاربة التداولية في دراسة الشعر، فإن الحاجة لا تزال قائمة إلى دراسة نص تراثي تتكامل فيه البنية الشعرية مع الأبعاد السياسية والعقدية والحجاجية، ولا تقتصر على تصنيف الأفعال الكلامية، بل تتجاوز ذلك إلى الكشف عن صلتها بالغرض الحرفي والقوة الإنجازية والسياق والمتلقي. وانطلاقا من هذا السياق، تتحدد خصوصية الدراسة الحالية في طبيعة مدونتها وفي المنهج الذي تتبعه في تحليلها، لا في مجرد تطبيق تصنيف سيرل على نص شعري عربي قديم؛ فبائية الكميت نصٌّ جدلي ذا دلالات سياسية وعقدية واضحة، تتداخل فيه الأفعال التقريرية والالتزامية والتعبيرية والتوجيهية والإعلانية، وتتفاعل مع عدد من الوسائل البلاغية، بما يمنح الخطاب قوة تداولية وحجاجية متضافرة. كما أن الخطاب في البائية لا ينصرف إلى متلقٍّ واحد، بل يتوجه، بحسب المقام، إلى أنصار الشاعر وآل البيت من جهة، وإلى الخصوم والمخالفين من جهة أخرى؛ الأمر الذي يجعل دراسة القوة الإنجازية وآثارها التداولية وثيقة الصلة بالسياق الحجاجي الذي تنتظم فيه أبيات القصيدة.

ومن ثمّ، تسعى الدراسة الحالية إلى تجاوز الاقتصار على تحديد أنواع الأفعال الكلامية، للكشف عن الكيفية التي تتضافر بها هذه الأفعال في بناء الحجاج، وتثبيت موقف الشاعر، وتوجيه خطابه إلى المتلقي، مع التمييز بين الغرض الحرفي للقول والقوة الإنجازية التي يكتسبها في سياقه التداولي.

الأفعال الكلامية

يبيّن تطوّر الدراسات اللغوية الحديثة أنّ الاهتمام بوظائف اللغة انتقل من تحليل بنيتها الصورية إلى الكشف عن دورها الفاعل في التواصل الإنساني، وهو ما أفرز الحاجة إلى مقاربة تتجاوز الوصف البنيوي وتبحث في قدرة الأقوال على إنجاز الأفعال داخل المجتمع. وفي هذا السياق تشكّلت ملامح نظرية الأفعال الكلامية في إطار الفلسفة اللغوية الحديثة، حيث ارتبط المصطلح بدايةً بالبنيويين مثل بلومفيلد[1] في العقد الثالث من القرن

[1] Bloomfield

العشرين، ثم تبلورت النظرية على نحو أوثق مع جون أوستين[1] مع نشأة الدرس التداولي، قبل أن تتعمّق مع أعمال أوستين وسيرل اللذين نظرا إلى الفعل الكلامي بوصفه استخدامًا لغويًا يتجاوز نقل المعلومات إلى إنجاز فعل اجتماعي، فتغدو اللغة وسيلة للفعل والتأثير، ويتحوّل المنطوق إلى حدث اجتماعي يقع في لحظة الخطاب (مدلّل، ٢٠٢١م: ٩٠). وقد أسّس جون أوستين لهذا التصوّر بتمييزه بين القول بوصفه نطقًا لغويًا والقول بوصفه فعلًا يُنجز في سياق محدّد، مؤكّدًا أنّ اللغة لا تقتصر على وصف الواقع، بل تُستخدم لإنجاز أفعال اجتماعية، وهو ما لخّصه بقوله: «أن تقول يعني أن تفعل» (أوستين، ١٩٦٢م: ١٢). كما قسّم الفعل الكلامي إلى ثلاثة مستويات: التلفّظي والإنجازي والتأثيري، مبيّنًا أنّ المعنى يرتبط بنيّة المتكلّم وسياق التلفّظ، لا بالصيغة اللغوية وحدها (المصدر نفسه: ٩٤). وفي امتداد هذا التصوّر، أعاد جون سيرل بناء نظرية الأفعال الكلامية على أسس أكثر ضبطا، منتقدا بعض الغموض في تصنيفات أوستين، ولا سيما التداخل بين الفعل اللفظي والإنجازي. وانطلق من فرضية أنّ كل جملة تُستعمل في سياق تواصلي تُعدّ فعلًا لغويًا ذا قوّة إنجازية محدّدة (سيرل، ١٩٦٩م: ١٢)، وجعل من الفعل الإنجازي الوحدة الأساسية للتفاعل اللغوي (المصدر نفسه: ٣). كما قدّم تصنيفا خماسيا للأفعال الإنجازية (إخبارية، توجيهية، التزامية، تعبيرية، إعلانية)، موضحًا الشروط التي تميّز كل صنف من حيث الغرض والسياق والعلاقة بين المتكلّم والمخاطب. وبهذا مثّلت النظرية انتقالًا بالدرس اللغوي من تحليل البنى إلى تحليل الممارسة الاجتماعية، وأسهمت في تطوير تحليل الخطاب وفهم اللغة بوصفها فعلا اجتماعيا مؤثّرًا في الواقع. ولم يقتصر اهتمام سيرل على تصنيف الأفعال الإنجازية، بل تناول أيضا الأفعال الكلامية غير المباشرة، وهي الأفعال التي لا تتطابق فيها القوة الإنجازية المقصودة مع القوة التي تدلّ عليها الصيغة اللغوية الظاهرة. ففي الفعل الكلامي غير المباشر، يُنجز المتكلّم فعلا كلاميا معينا، ويقصد في الوقت نفسه، من خلال إنجازه لهذا الفعل، إنجاز فعل كلامي آخر بصورة غير مباشرة. ومن ثمّ، قد تأتي الجملة في صورة استفهام، بينما تؤدي في سياقها وظيفة توجيهية، كأن يكون المقصود من السؤال عن قدرة المخاطب على القيام بفعل معيّن هو الطلب منه أن يقوم بذلك الفعل. ويضرب سيرل مثالًا بالسؤال عن إمكانية تناول الملح، إذ لا يكون الغرض منه الاستفسار عن قدرة المخاطَب فحسب، وإنما قد يُفهم منه طلبُ تمرير الملح إلى المتكلّم. ويؤكد سيرل أن فهم القوة الإنجازية غير المباشرة يتطلب تجاوز المعنى الحرفي للجملة والنظر في السياق، والمعرفة المشتركة بين المتكلّم والمخاطَب، وشروط الفعل الكلامي،

[1] John Austin

فضلًا عن قدرة المخاطَب على استنتاج قصدالمتكلّم (Searle,1975:64-73)ويرى سيرل أن الأفعال الكلامية غير المباشرة لا تمثّل خروجا عن القواعد العامة للأفعال الكلامية، وإنما يمكن تفسيرها من خلال تفاعل المعنى الحرفي للقول مع السياق والمعرفة المشتركة وقواعد الاستدلال. ولذلك يستطيع المخاطَب الانتقال من الفعل الظاهر الذي تؤديه الجملة إلى الفعل المقصود منها، حتى عندما لا يكون هذا الفعل مصرحًا به بصورة مباشرة (نفس المصدر:٧٢).

ومع ذلك، لم يخلُ تصوّر سيرل من بعض الانتقادات المنهجية. فمن سلبيات المنهج البنيوي التي أشار إليها وليد قصاب، نقلا عن إيغلتون[1]، الإفراط في البحث عن البنى العامة والمشتركة وإهمال الخصائص الفردية والتفاصيل التي تميّز النصوص، بما قد يؤدي إلى فرض بنية مشتركة عليها وإغفال بعض دلالاتها وخصوصياتها (قصاب، ٢٠٠٩م: ١٤٩). ويمكن ربط هذا النقد، على المستوى المنهجي، بما يوجّهه دريدا إلى نظرية سيرل؛ إذ يرى أنّ سيرل يميل إلى بناء نظرية منظّمة للأفعال الكلامية من خلال القواعد والتصنيفات والحدود الفاصلة بين الحالات النموذجية والحالات الهامشية. ويذهب دريدا إلى أنّ كتاب سيرل يعيد إنتاج استراتيجية أوستين في «المثالية والاستبعاد»، بل «ينظّمها ويجعلها أكثر صرامة»، مستخدما الأدوات المفهومية نفسها والتقابلات الهرمية والقيم المعيارية. كما ينتقد دريدا[2] إهمال الحالات الهامشية والاستثنائية التي يمكن أن تكشف، في نظره، عن الشروط الأساسية لعمل الفعل الكلامي ويرتبط بذلك نقدٌ آخر يتصل بمركزية قصد المتكلّم في تصور سيرل؛ إذ يمنح سيرل القصد الواعي للمتكلّم مكانةً أساسية في تحديد طبيعة الفعل الكلامي، حتى إن دريدا يشير إلى اعتماد سيرل على القصد في التمييز بين الفعل الجاد وغير الجاد كما ينتقد دريدا التصور الذي يجعل المتكلّم والمخاطَب «ذاتين واعيتين» ثابتتين، ويرى أنّ هوية الفعل الكلامي لا يمكن اختزالها في قصد المتكلّم وحده، لأن القول قابل للتكرار والانفصال عن سياقه الأصلي وعن قصد صاحبه، كما أنّ إمكان الغياب والتكرار يظلّ حاضرًا في بنية العلامة (Derrida,1988:68-78).

الكميت بن زيد الأسدي

الكميت بن زيد الأسدي (٦٧٩–٧٣٤) وُلد بالكوفة، وينتمي إلى قبيلة مضر، ونشأ في بيئة جمعت بين البداوة والحاضرة، ما أتاح له الإحاطة بلغات العرب وأشعارهم وأنسابهم ومطالبهم، وهو ما انعكس على ثراء ثقافته ومعرفته بالشعر والخط والفكرين الديني والسياسي (الفاخوري، ١٣٨٧ش: ٣٠٧). وقد ظهرت موهبته

[1] Eagleton
[2] Derrida

مبكرا، فكان شاعرا عالما، وحافظًا للقرآن، وخطيبا مفوّها، ونسّابا، إلى جانب مشاركته الجريئة في مناظرات التشيّع، بما كشف عن شجاعته وولائه لمبادئه الدينية (الشايب، ١٩٧٦م: ١٥١).

جمع الكميت في شعره بين أدب البادية والحاضرة، فغلب عليه الأسلوب التقريري البلاغي الملتزم بالجدل والاحتجاج السياسي، ولا سيّما في معارضته لبني مروان ودفاعه عن آل البيت، مما جعل شعره أداة احتجاج وحجّة مذهبية شيعية، يتجلّى ذلك بوضوح في «الهاشميات»، وهي ثماني قصائد نظمها للدفاع عن آل علي، وطُبعت لأول مرة في مصر وليدن سنة ١٩٠٤، ممثّلة تجربة أدبية سياسية ودينية مميّزة في عصره (زيدان، ١٩٤٦م: ٢٦٣؛ الصعيدي، ١٩٣٨م: ٧٤٠).

ورغم ما تعرّض له من مخاطر، كالسجن على يد والي العراق خالد بن عبد الله القسري، تمكّن من الفرار إلى الشام مستجيرا بمعاوية بن هشام، ثم أعاد صياغة موقفه الشعري بما يوازن بين الدفاع عن مذهبه وطلب الأمان من السلطة الأموية، في دلالة على قدرته على التكيّف السياسي دون التفريط بمبادئه (الشايب، ١٩٧٦م: ١٥٢). وبذلك يُعدّ الكميت نموذجا للشاعر الملتزم دينيا وسياسيا، الذي جمع بين المعرفة الواسعة والقدرة الشعرية، وترك أثرا بارزا في المشهدين الأدبي والديني في عصره.

الأفعال الكلامية في بائية الكميت بن زيد الأسدي

يقدّم هذا القسم قراءة تداولية للأفعال الكلامية في بائية الكميت بن زيد الأسدي وفق تصنيف جون سيرل، من خلال تتبّع تحوّل القول من وظيفة تقريرية إلى فعل لغوي ذي قوة إنجازية مؤثّرة. وتُظهر أبيات الكميت تنوّعا واضحا في الأفعال الكلامية، من الإخبار والالتزام إلى الإعلان والتوجيه والتعبير، بما يجعل الخطاب الشعري فضاءً لتفاعل اللغة مع المواقف السياسية والعقدية، وانتقالها من التصوير إلى التأثير والتوجيه.

كما يعالج القسم هذه الأفعال بتحليل نماذج شعرية تبيّن طبيعتها التداولية، وتكشف تداخل الغرض الحرفي والإنجازي في إنتاج دلالة مركّبة، مع إبراز دور الوسائل البلاغية في تعزيز القوة الحجاجية للفعل الكلامي، مبيّنا إسهام هذه الأفعال في بناء خطاب الكميت وتشكيل موقفه ضمن سياق الصراع السياسي والفكري في العصر الأموي:

الأفعال الالتزامية[1]

يُعدّ الفعل الالتزامي محورا أساسيا في تصنيف سيرل للأفعال الإنجازية، لارتباطه بنيّة المتكلّم تجاه فعل مستقبلي يلتزم بإنجازه. ويُعرَّف بوصفه أحد عناصر سيرل الخمسة، إذ يهدف إلى التعبير عن التزام المتحدّث بتحقّق عمل في المستقبل (سيرل، ١٩٦٩م: ١٤)، معتمِدا على قول صادق ومرغوب لإثبات هذا الالتزام. ويشمل هذا الصنف أفعالًا مثل الوعد والعهد والتبرير وإثبات الذات والقبول والالتزام والتطوّع والقسم (زرقاني وأخلاقي، ١٣٩١ش: ٦٩)، بينما يتمثّل غرضه الإنجازي في إلزام المتكلّم نفسه بفعل لاحق، ويكون اتجاه المطابقة فيه من العالم إلى الكلمات (كنون ، ٢٠١٥م: ٣٨٦). ويُبرز البيت الشعري الآتي هذا النوع من الأفعال، إذ يتحوّل فيه القول من إخبار ظاهري إلى تعهّد فعلي في ضوء نظرية سيرل:

وكنت لَهُم من هَؤُلاك وهَؤُلا مِجَنّا على أنّي أَذَمُّ وأُقصَبُ
(الكميت ،٢٠٠٠م: ٥١٥).

(معناه: كنتُ للفرقتين (الحرورية والمرجئة) بمثابة الترس الذي يصدّ عنهما الأذى في سبيل آل هاشم، وأدفع عنهم باللسان (أُذَمُّ وأُقصَبُ) كل من يعيبهم).

يُخبر الشاعر في ظاهر اللفظ بدوره في الدفاع عن آل هاشم، غير أنّ هذا الإخبار ينطوي على قوة إنجازية تجعله فعلًا كلاميا التزاميا، إذ يعلن استمرار هذا الدور لا مجرّد وقوعه في الماضي. ويتجلّى هذا الالتزام في استعمال الفعلين المضارعين «أُذَمّ وأُقصَبُ» الدالَّين على استعداد دائم لتحمّل الذمّ والسباب في سبيل حماية الممدوح، بما ينسجم مع طبيعة الأفعال الالتزامية التي تربط القول بتعهّدٍ مستقبلي. كما يؤدّي تشبيه الشاعر نفسه بـ«المِجَنّ» وظيفة تداولية تتجاوز البلاغة، إذ يعزّز القوة الإنجازية للقول ويجسّد الالتزام في صورة حسّية تُظهر الشاعر درعًا واقيًا عن آل هاشم. ولا تتمثل أهمية هذا الالتزام في مجرد إثبات استعداد الشاعر للدفاع، بل في تأكيد ثبات موقفه رغم ما قد يترتب عليه من لوم وذمّ؛ فذكرُ ما يتعرض له

[1] Commissives

من أذى لفظي يجعل الالتزام أكثر كلفة، ومن ثمّ أكثر دلالة على رسوخ الموقف الذي يتبناه. كما يكتسب هذا الالتزام بُعدا تداوليا من خلال علاقته بالمتلقّي؛ إذ يمكن أن يُفهم بوصفه رسالة طمأنة إلى آل هاشم بشأن استمرار الشاعر في نصرتهم، وفي الوقت نفسه إعلانا أمام خصومهم عن عدم تراجعه عن الدفاع عنهم. وبهذا يتجاوز القول حدود التعهّد الشخصي ليؤدي وظيفة حجاجية تتمثل في تثبيت موقف الشاعر وإظهار استعداده لتحمّل تبعاته، بما يعزّز صورته أمام المتلقّي بوصفه مدافعًا ثابتًا عن آل هاشم. وعلى الرغم من خلوّ البيت من طلب مباشر أو تهديد صريح، فإنّه يتضمّن إيحاء ضمنيا برفض الطعن في آل هاشم، وهو أثر تداولي ناشئ عن مضمون الالتزام أكثر من كونه فعلا كلاميا مستقلا، بينما يبقى الفعل الكلامي الأساس هو فعل الالتزام. وبذلك يتحوّل البيت إلى إعلان ولاء ثابت يؤدي وظيفةً حجاجية تتمثل في تثبيت هوية الشاعر وموقفه أمام المتلقّي، وتحويل الدفاع عن آل هاشم من موقف شخصي إلى موقف معلن قابل للتلقي والتداول.

أمّا في البيت التالي، فيعرض الكميت ما يتعرّض له من أذى واتهام بسبب ولائه لآل هاشم، غير أنّ هذا الإخبار الظاهري يتجاوز الوصف ليغدو فعلًا كلاميًا ذا قوة إنجازية واضحة:

وأَرَمى و أرمِي بالعَداوَةِ أهلَها وإنّي لأوذَى فِيهُمُ و أُؤَنّبُ
(الكميت ، ٢٠٠٠م:٥١٦).

(معناه: يُتَّهَم الشاعر وتُوجَّه إليه سهام العداوة والخصومة بسبب من يعاديهم هو، ويُرْمَى بأنه عدوّ للآخرين لأنه يقف مع قومه. وهو يعترف أنه يتحمّل الأذى واللوم والتوبيخ في سبيل محبتهم والدفاع عنهم).

الغرض الحرفي للبيت هو الإخبار بما يلقاه الشاعر من خصومه وردّه عليهم، غير أنّ هذا الإخبار يقوم على قوة التزامية تتجلّى في إصراره على مواصلة الدفاع عن آل البيت رغم الأذى. ويتّضح ذلك في استعمال الفعلين المضارعين «أُرمى» و«أرمي» اللذين لا يصفان حالة عابرة، بل يعبّران عن استعداد دائم لتحمّل التبعات والردّ على الخصوم، مما يجعل القول فعلا كلاميا التزاميا في منظور سيرل، إذ يلتزم المتكلّم بفعل مستقبلي ويتحمّل مسؤوليته.

يتجاوز هذا الإلتزام إلى وظيفة حجاجية تتحدد بحسب المتلقّي؛ فبالنسبة إلى الخصوم الذين يرمونه بالعداوة، يتحول الإقرار بالأذى إلى تأكيد ضمني على أن

ما يتعرض له من لوم وتوبيخ لا يحمله على التراجع عن موقفه؛ وبالنسبة إلى آل هاشم وأنصارهم، يتحول الإقرار نفسه إلى تأكيد على صدق الولاء، إذ إن تحمّل اللوم علنا يمنح التزامه مصداقية أكبر من مجرد الادّعاء بالمحبة والدفاع.

ويعزّز تصدير الشطر الثاني بالجملة الاسمية المؤكَّدة بـ«إنّ» القوةَ الإنجازية للقول، إذ يبرز ثبات موقف الشاعر واستمرار ابتلائه، فيتحوّل الالتزام إلى ما يشبه التعهّد أمام السامع. كما يوسّع استعمال «أهلَها» دائرة الخطاب ليشمل كلّ من يعادي الشاعر بسبب موالاته لآل هاشم، محوّلا الالتزام من موقف خاص إلى موقف عام.

أمّا عدّ البيت تهديدا أو فعلا توجيهيا فغير دقيق تداوليا؛ إذ لا يصدر الشاعر أمرا ولا يطلب من مخاطبيه فعلا أو كفّا، بل يعلن موقفه واستعداده لتحمل تبعاته، وإذا أمكن أن يُفهم في قوله «وأرمي بالعداوة أهلها» إيحاءٌ تحذيري تجاه من يعاديهم، فإنه يظل أثرا تداوليا ضمنيا ناشئا عن ثبات الشاعر على موقفه، فإن الفعل الكلامي الإنجازي الرئيس في البيت هو فعل التزامي تتجاوز وظيفته مجرد التعبير عن التمسك بالدفاع عن آل هاشم إلى تثبيت هذا الموقف أمام المتلقّي، وإظهار استعداد الشاعر لتحمّل الأذى في سبيله.

ويجسّد الكميت من خلال هذا المشهد موقفه العقدي والسياسي في سياق الصراع الأموي على الخلافة، حيث أدّى غصب السلطة وإقصاء قريش إلى فتن وحروب متعاقبة، وفتح المجال أمام فرق كالخوارج، حتى «خاضت البلادُ حروبًا ومعارك جيلًا بعد جيل، وامتلأت الأمكنة بجثث رجال الداعي» (عبدالعظيم زاده، ١٣٨١ش: ٦٧٣)، ومن أبرز من واجهوا السلطة الأموية شبيب بن يزيد الشيباني وقعنَب بن سويد، اللذين تحيل إليهما ألفاظ الكميت في هذا الموضع:

وَ شاطَ على أرماحِنا بادّعائِها وتَحويلِها عنكم شَبِيبٌ و قَعنَبُ
نُقَتِّلُهم جِيلا فجِيلا نَرَاهُمُ شَعائِرَ قُربانٍ بِهِم يُتَقَرَّبُ
(الكميت، ٢٠٠٠م: ٥٣٠).

(أي: ثار شبيب وقعنَب وهجما علينا برماحنا بسبب ادعائهما الباطل للحق، ومحاولتهما صرف هذا الحقّ عنكم (عن آل البيت). سنقاتلهم ونقضي عليهم جيلاً بعد جيل، ونرى قتالهم كأنّه قربانٌ نتقرّب به إلى الله، لما يفعلونه من ظلم وعداء لأهل البيت).

على الرغم من أنّ ظاهر البيتين يقتصر على الوصف والقصّ لما جرى بين أنصار قريش والخوارج، فإنّ القول ينطوي على قوة إنجازية تجعل منه فعلا كلاميا التزاميا في ضوء تصنيف سيرل؛ إذ لا يكتفي الكميت بسرد قتال شبيب وقعنب، بل يعلن التزامه المستمرّ بالتصدي لمن يراه منازعا لحق قريش وآل البيت. ويتجلّى هذا الالتزام في الفعل المضارع «نقتّلهم» وما يصاحبه من تكرار «جيلاً فجيلاً»، بما يفيد امتداد الفعل وتجددَه، ويجعل القتال الموصوف موقفًا يتبنّاه الشاعر ويعلن استعداده لمواصلته، لا مجرد واقعة منقضية. ومن ثمّ، فإن القوة الالتزامية لا تستند إلى صيغة المضارع وحدها، وإنما تنشأ من اقترانها بسياق يعلن فيه المتكلم تحمّل تبعات موقفه واستمراره فيه. وبناءً على ذلك، يتمثّل الفعل الكلامي الإنجازي الرئيس في البيتين في فعل الالتزام، ويتمثل في إعلان الشاعر استعداده لمواصلة المواجهة دفاعًا عمّا يراه حقا لقريش وآل البيت. أما الدلالات الإعلانية والتوجيهية التي يمكن استشفافها من السياق، فلا تُعامل بوصفها أفعالًا إنجازية مستقلة موازية لفعل الالتزام، وإنما بوصفها آثارًا تداولية ناشئة عنه. فمن الناحية الإعلانية، يعكس القول تصوّر الشاعر لحق قريش في الخلافة، ويجعل مواجهة من ينازع هذا الحق امتدادا لموقفه السياسي. وتؤدي صورة القتال بوصفه «شعائر قربان» وظيفة حجاجية في دعم هذا الموقف؛ إذ تمنح فعل المواجهة قيمة دينية في منظور الشاعر، فتسهم في تقديم التزامه السياسي بوصفه منسجمًا مع منظومته العقدية. غير أن هذا البعد لا يمثل فعلًا إعلانيا مستقلا بالمعنى السيرلي، لأن القول لا يُنشئ وضعًا مؤسسيا جديدا، وإنما يؤكد موقفًا يراه الشاعر قائمًا أصلا.

أما البعد التوجيهي، فيظهر بصورة غير مباشرة في عرض العاقبة التي تنتظر من يصرّ على منازعة هذا الحق؛ فقول الشاعر «نقتلهم جيلاً فجيلاً» لا يتضمن أمرا أو نهيا صريحا، وإنما يمكن فهمه، في ضوء سياقه، بوصفه قولا ذا أثر تحذيري غير مباشر؛ إذ يُستخلص الغرض التحذيري من مضمون الإخبار عن العاقبة، لا من صيغة توجيهية صريحة. ومن ثمّ، يظل هذا البعد أثرًا تداوليا تابعا لفعل الالتزام، لا فعلا توجيهيًا مستقلا في بنية القول. كما يتحدد الأثر التداولي للالتزام بحسب موقع المتلقّي من الموقف الذي يعلنه الشاعر؛ فهو بالنسبة إلى أنصار آل البيت وقريش يؤكد ثبات الشاعر على موقفه واستعداده لمواصلة الدفاع عنه، بما يعزز الثقة بولائه؛ أما بالنسبة إلى الخصوم، فيحمل إعلان الاستمرار في

المواجهة أثرا ردعيا، إذ يكشف أن المنازعة لن تدفع الشاعر إلى التراجع. وهكذا يجمع الالتزام بين تثبيت الموقف أمام المؤيدين وإظهار صلابته أمام المخالفين، وهو ما يفسر ملاءمة هذا الفعل الكلامي للسياق السياسي والعقدي للبيتين. وبناءً على ذلك، يتمثّل الفعل الكلامي الإنجازي الرئيس في البيتين في فعل الالتزام بإعلان استمرار القتال، بينما تؤدي الدلالات الإعلانية والتوجيهية وظائف حجاجية وتداولية مرافقة له، من غير أن تساويه في المرتبة الإنجازية. وبذلك ينتقل القول من مجرد الإخبار عن واقعة قتالية إلى تثبيت موقف سياسي وعقدي وإبرازه أمام متلقين مختلفين.

الأفعال التعبيرية[1]

تندرج الأفعال التعبيرية ضمن تصنيفات الأفعال الكلامية بوصفها أكثرها اتصالًا بالبنية الوجدانية للخطاب، إذ تهدف إنجازيًا إلى التعبير الصادق عن الموقف النفسي للمتكلم تجاه حدث أو موقف معيّن، دون أن يكون لها اتجاه مطابقة، لأن الغاية فيها ليست مطابقة القول للعالم أو العكس، بل صدق الشعور المعبَّر عنه. ويشمل هذا الصنف أفعالًا مثل الشكر والتهنئة والاعتذار والمواساة والترحيب، بوصفها وسائل لغوية للتعبير عن حالات نفسية كالرّضا والغضب والسرور والحزن والنجاح والفشل (نحلة، ٢٠٠٢م: ٥٠).

وفي البيتين الآتيين، يوجّه الكميت خطابه إلى من يعدّهم من أهل الضلال من الأمويين وأتباعهم، مبرزًا موقفه الوجداني الرافض لهم، في سياق تاريخي اتّسم بإيذاء كل من يوالي آل علي وحرمانه من حقوقه، حتى بلغ الخوف حدّ الامتناع عن ذكرهم، وكان الكميت – كما يشير الكيلاني – الشاعر الوحيد الذي جاهر بمدح آل النبي والدفاع عن حقّهم المغتصب، مضحيًا بنفسه في هذا السبيل (الكيلانى، ١٠٩–١١٠):

فَقُل لِلذي في ظِلّ عَمياءَ جَونَةٍ ... يرَى الجَورَ عَدلاً أينَ لا أينَ تَذهَبُ
بِأيّ كِتابٍ أَم بِأيَّةِ سُنَّةٍ ... تَرَى حُبَّهُم عَاراً عَلَيَّ و تحسَبُ
(الكميت ،٢٠٠٠م: ٥١٦).

(أي: قل لذلك الشخص الواقع في ظلام الجهل والضلالة، الذي يرى الظلم عدلًا: إلى أين تذهب بعقلك ووعيك؟ وكيف تصل بك الضلالة إلى هذا الحدّ؟ وبأيّ كتابٍ

[1] Expressive

من كتب الله، أو بأيّ سنّةٍ من سنن النبي، تحسب أنّ محبّتي لأهل البيت عارٌ أو ذنب؟).

يتجلّى في هذا السياق الموقف الانفعالي الحادّ للكميت تجاه من يرفضون موالاة آل البيت؛ إذ لا يكتفي بوصف موقفهم، بل يعبّر عن رفضه الشديد لاعتبار موالاتهم عارًا، مستنكرًا ما يراه انحرافا عقديا وأخلاقيا. ويُصوّرهم بصورة من يعيش «في ظلّ عمياء جونة»، وهي صورة لا تؤدي وظيفة وصفية فحسب، بل تكشف عن موقف الشاعر السلبي من رؤيتهم، وتُسهم في نقل انفعاله إلى المتلقّي. كما يعزّز هذا البعد التعبيري بسؤالين إنكاريين: «بأيّ كتاب؟ بأيّ سنّة؟» وهما لا يطلبان جوابا بقدر ما يضعان موقف المخاطب موضع المساءلة، ويحوّلان التعبير عن السخط إلى أداة حجاجية للطعن في الأساس الذي يستند إليه هذا الموقف. ويمكن النظر إلى هذين الاستفهامين، في ضوء مفهوم سيرل للأفعال الكلامية غير المباشرة، بوصفهما يحملان أثرًا توبيخيًا غير مباشر؛ فبنيتهما النحوية استفهامية، غير أن سياقهما التداولي لا يجعلهما طلبًا حقيقيًا للمعلومة، بل وسيلة لمساءلة المخاطَب عن مستنده الديني وإنكار كفايته، بحسب التصور الذي يقدمه الشاعر. وعلى مستوى الأفعال الكلامية، يظهر الغرض الحرفي في مساءلة المخاطب عن الأساس الديني الذي يبرّر به موقفه من محبّة آل البيت، غير أنّ الغرض الإنجازي الرئيس هو فعل تعبيري وفق تصنيف سيرل، يعبّر فيه الشاعر عن السخط والاستهجان ورفض الموقف المقابل. ولا تقتصر وظيفة هذا التعبير على الكشف عن الحالة النفسية للشاعر، بل تتجه إلى إحداث أثر في المخاطب؛ إذ تسعى الأسئلة الإنكارية والتصوير الحاد إلى دفعه إلى مراجعة موقفه، وإظهار تناقضه مع المرجعية الدينية التي يدّعي الاحتكام إليها. ومن ثمّ، فإن التعبير عن الغضب هنا يؤدي وظيفة حجاجية تتجاوز مجرد تسجيل الانفعال، لأنه يُستخدم لتقويض موقف الخصم وتعزيز الموقف الذي يتبنّاه الشاعر أمام المتلقّي. ويتحدد أثر هذا الفعل التعبيري بحسب موقع المتلقّي؛ فهو موجّه في المقام الأول إلى المخالف الذي يصف محبّة آل البيت بالعار، ولذلك يحمل الخطاب بالنسبة إليه أثرًا توبيخيًا واستنكاريًا، في حين يمكن أن يؤدي أمام المتلقّين المتعاطفين مع الشاعر أو مع آل البيت وظيفة تأكيد الهوية والموقف المشترك، من خلال إظهار عدم قبول الشاعر للمساس بمحبّتهم. وبذلك لا يكون الانفعال غاية في ذاته، وإنما يتحول إلى وسيلة لتثبيت الموقف وتعزيز الانتماء إليه أمام المتلقّي. وعليه، يبقى الفعل التعبيري هو

الفعل الكلامي الإنجازي الرئيس في البيتين، أما الاستفهام الإنكاري وما يحمله من توبيخ ومساءلة، فيمثلان وسائل بلاغية وآثارًا تداولية تخدم هذا الفعل وتزيد من قوته الحجاجية، ولا يشكلان أفعالًا كلامية مستقلة موازية له. وتؤدّي الوسائل الأسلوبية، كالتشبيه والاستفهام الإنكاري والمقابلة بين «الجور» و«العدل»، دورا أساسيا في تقوية هذا الفعل، إذ تنقل الانفعال من مجرد حالة نفسية خاصة بالمتكلم إلى موقف معلن موجّه إلى الآخر، وتمنحه قدرة أكبر على التأثير في المتلقّي وتثبيت الموقف العقدي الذي يتبنّاه الشاعر.

يعرض الكميت في الأبيات التالية صورةً مثالية لآل البيت، قائمة على تمجيد صفاتهم الدينية والأخلاقية وبيان دورهم في الهداية والعلم والكرم. فهو يرى أنّ فيهم قد تجلّت الصفات الإنسانية السامية، ولذلك كان حبّه لهم متجذرًا وعاطفته تجاههم بالغة العمق. ولهذا نجده يمدحهم بأنهم إذا وعدوا صدَقوا، وإذا أظلّ الناسَ التباسٌ كانوا لهم بدرا وقبسا من نور، وإذا هاج العلم وانتشر لم يغِب أثرهم عنه، بل كانوا هم ذروة العلم ومصدره. كما يشبّه سخاءهم بسحابةٍ ممطرةٍ غزيرة البركة، ويجمع لهم بين القول والفعل والسبق إلى الخير:

إذا نَشَأت مِنهُم بأرضٍ سَحابة ... فَلا النّبتُ مَحظُورٌ ولا البَرقُ خُلّبُ
إذا ادلَمَّست ظَلمَاءُ أمرَينِ حِندِسٌ ... فَبَدرٌ لَهُم فِيها مُضِيءٌ والكواكب
وإن هاجَ نَبتُ العِلمِ في النّاسِ لَم تَزَل ... لَهُم تَلعَةٌ خَضراءُ مِنهم و مِذنَب
مَسَامِيحُ مِنهُم قائِلُونَ و فَاعِلٌ ... وَسَبّاقُ غاياتٍ إلى الخَيرِ مُسهِبُ
(الكميت، ٢٠٠٠م: ٥٣٩-٥٣٨).

(أي: إذا ظهر منهم عمل صالح أو علم أو فعل كريم في الأرض، فإنه يُثمر كما تنبت الأرض بعد المطر؛ فلا شيء يمنع نموه، ولا شيء يحجب أثره، كما لا يمنع المطر النبت، ولا يحجب البرق نورَه. وإذا غامت الأمور واشتدّت الظلمة، يظهر أهل البيت كالبدر المنير أو الكوكب الذي يضيء الطريق للآخرين، فيهديهم ويوجههم في الظلام. وإذا نما العلم بين الناس، فإن أهل البيت يظلون كالأرض الخضراء المثمرة التي ينتفع بها الناس، أي مصدرا دائما للعلم والمعرفة. وهم يتميزون بالكمال الأخلاقي؛ فيجمعون بين كرم القول والفعل، ويسابقون إلى الخير).

الغرض الظاهري للأبيات هو الإخبار عن صفات آل البيت ومكانتهم ودورهم في الهداية والعلم والكرم، غير أنّ هذا الإخبار لا يأتي في صورة تقرير محايد، بل يتضمن موقفا وجدانيا واضحا من الممدوحين. ويتمثل الفعل الكلامي الإنجازي الرئيس في فعل تعبيري، لأن الشاعر لا يكتفي بإثبات صفات يراها في آل البيت، وإنما يستخدم هذا الوصف لإظهار الإعجاب والمحبة والتوقير والاعتزاز بهم؛ إذ لا تُستخدم صور السحابة والبدر والكواكب والتلعة الخضراء لمجرد الزينة، بل تنقل الممدوحين من مجرد موضوع للوصف إلى موضع للتعظيم، فتمنح صفاتهم المجردة (الكرم، الهداية، دوام العطاء العلمي) حمولة حسّية قادرة على تكثيف الانفعال ونقله إلى المتلقّي.

ويرتبط اختيار الفعل التعبيري هنا بطبيعة المقام المدحي؛ فلو اقتصر الشاعر على الإخبار بكرم آل البيت وعلمهم، لأمكن أن يُفهم كلامه بوصفه تقريرًا لصفاتهم، أما تحويل هذه الصفات إلى صور متتابعة ذات قيمة وجدانية فيتيح له أن يعلن موقفه منهم وأن يجعل إعجابه بهم محسوسًا في بنية الخطاب. ومن ثمّ، فالتعبير الوجداني ليس إضافةً إلى المعنى الوصفي فحسب، بل هو الطريقة التي يُبرز بها الشاعر قيمة الممدوحين ويثبت خصوصية علاقته بهم، بما يتداخل مع وظيفة حجاجية تتمثل في ترسيخ الصورة الإيجابية التي يبنيها عنهم. ويتحدد أثر هذا الفعل التعبيري بحسب المتلقّي؛ فبالنسبة إلى المتلقّين المتعاطفين مع آل البيت، يسهم هذا المدح في تعزيز مشاعر التوقير والاعتزاز بهم وتأكيد القيم المشتركة التي ينسبها الشاعر إليهم. أما بالنسبة إلى المتلقّي المخالف، فإن بناء هذه الصورة المثالية يؤدي وظيفة مقابلة، إذ يقدّم آل البيت في صورة أصحاب فضل وعلم وكرم، بما يدعم موقف الشاعر منهم من خلال عرض صفاتهم في صور تتجاوز الوصف المباشر إلى التعظيم والتقويم الإيجابي. وعليه، يبقى الفعل التعبيري هو الفعل الكلامي الإنجازي الرئيس في الأبيات، وتتمثل قوته في تحويل الصفات التي ينسبها الشاعر إلى آل البيت إلى وسيلة لإظهار المحبة والإعجاب والتوقير والاعتزاز بهم. أما التشبيهات والصور الرمزية، فتمثل وسائل بلاغية تعزّز هذا الفعل ولا تشكل أفعالًا كلامية مستقلة موازية له. وبذلك يصبح المدح هنا أكثر من مجرد وصف لصفات الممدوحين؛ إذ يتحول إلى فعل لغوي يعلن موقف الشاعر الوجداني منهم، ويعيد بناء صورتهم أمام المتلقّي بما يخدم الوظيفة التعبيرية والحجاجية للخطاب في آنٍ واحد.

يتناول الكميت في الأبيات التالية مأساة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، الذي يعدّ من أشرف آل هاشم وأعلى مكانة بينهم. ويهدف الشاعر إلى إبراز مظلومية الإمام، وإظهار الظلم الذي ارتكبه الأعداء بحقه، وما وقع عليه وعلى أصحابه من اعتداءات، متمثّلا في واقعة كربلاء وعاشوراء التي اعتبرها الكميت أعظم كارثة لحقت بالمسلمين في عصره:

ومِن أكابِرِ الأحداثِ كانت مُصيبةً عَلَينا قَتِيلُ الأدعِياءِ المُلَحَّبُ
قَتِيلٌ بِجَنْبِ مِن آلِ هاشمٍ فَيا لكَ لَحمًا لَيسَ عَنهُ مُذَبّبُ
ومُنعَفِرُ الخَدَّينِ مِن آلِ هاشمٍ ألا حبَّذا لكَ الجَبِينُ المُتَرَّبُ
(الكميت، ٢٠٠٠م: ٥٤٢).

(أي: من أعظم الأحداث التي وقعت علينا كانت مصيبة استشهاد الإمام الحسين (ع)، الذي استشهد على يد أعداءه المدعين للحقّ زورا. هو قُتل وهو من آل هاشم الكرام، أي أنه استُشهد في صفّ أهل بيته، ولا يمكن أن يخفف عن جسده أي ضرر أو طعن، فهو مظلوميّ بالكامل. وجهه مُلطّخ بالتراب بعد المعركة، وهو من آل هاشم، ما أطيبَ وما أعظمَ ذلك الجبينَ الملطَّخ بالتراب، فيا لروعتِه وكرامتِه).

على مستوى الغرض الحرفي، تهدف الأبيات إلى الإخبار بمأساة استشهاد الإمام الحسين، وكشف ما وقع عليه من ظلم، مع إيقاظ وعي الناس بحجم هذه الفاجعة. ويعرض الكميت تفاصيل الاستشهاد وإيذاء الإمام وأصحابه عرضًا قصصيًا يجعل الإخبار وسيلة لإبراز القسوة والفظاعة، لا مجرد سرد للأحداث. أما الغرض الإنجازي والرئيس، فهو الفعل التعبيري؛ إذ يعبّر الشاعر عن حزنه وألمه العميقين، ويبكي الإمام ويرثيه بأسلوب مؤثر، كما يُظهر انزجاره وكراهيته لعبيدالله بن زياد بوصفه أحد الأسباب المباشرة لمقتل الإمام وأصحابه (الطبري، ١٣٨٧ق، ج٧: ٣٠٨). ولا يقف اختيار الفعل التعبيري هنا عند حدود تفريغ الشاعر لحزنه الشخصي، بل يتصل بوظيفة مضاعفة يفرضها هول الحدث: فالرثاء المفجوع يتحول، حين يقترن بتصوير الجسد المنتهك والوجه المترّب، إلى إدانة ضمنية للفاعلين تفوق في تأثيرها أي حكم صريح بالظلم؛ إذ إن عرض مشهد المصيبة بهذه الحدّة الانفعالية يجعل المتلقّي يستنتج بنفسه فظاعة الجناة، بدل أن يُقال له ذلك مباشرة. وبهذا يخدم التعبير عن الحزن غرضين متلازمين: البكاء على الإمام، والتنديد بقاتليه، من غير أن يفترق الفعلان في بنية الخطاب. ويتجلى

هذا الفعل التعبيري في تصوير جسد الإمام المنهك وملامحه الملطخة بالتراب، وفي استعمال ألفاظ التعظيم من شأن الإمام وتوبيخ الجناة، بما يعكس الحالة النفسية للشاعر تجاه آل هاشم. ويُلاحَظ أن صيغتي «فيا لكَ لَحمًا» و«ألا حبَّذا لكَ الجَبِينُ المُتَرَّبُ» تمثّلان نموذجا للفعل الكلامي غير المباشر عند سيرل: فبنيتهما نداءٌ وتعجبٌ ظاهرهما التوجّه إلى جسد الإمام المتوفى، وهو ما لا يحتمل خطابا حقيقيا، غير أن قوتهما الإنجازية الفعلية تعبيرية-تعظيمية موجّهة إلى المتلقّي الحيّ، إذ يُراد بها تحويل مشهد الجسد الملطّخ بالتراب من صورة مهانة إلى صورة إجلال وتكريم؛ فالتعجّب هنا لا يطلب من المخاطب شيئا، وإنما ينقل إليه موقف الشاعر الانفعالي بوصفه الرسالة الحقيقية للقول. ويختلف أثر هذا الفعل التعبيري بحسب المتلقّي: فأمام أنصار آل البيت ومحبّيهم، يؤدي البكاء على الإمام وظيفة تشاركية، إذ يستحضر مصيبةً جامعة يجتمع حولها الحزن المشترك، فيعيد إحياء الرابطة العاطفية والعقدية بين الشاعر وجمهوره. أما أمام المتلقّي العام أو الخصم، فإن هذا التصوير المفجع يعمل عمل الحجة الأخلاقية غير المعلنة، إذ يضع أمامه مشهد المظلومية عاريا من أي تبرير، بما يجعل موقف قتلة الإمام يظهر بذاته موضع إدانة دون حاجة إلى تصريح مباشر بالحكم عليهم. وبذلك تتحول الأبيات من خطاب إخباري عن حادثة مأساوية إلى فعل كلامي تعبيري صادق، يجسّد مشاعر الحزن والأسى والانزجار من الظلم، وهو جوهر الأفعال التعبيرية كما حدّدها سيرل.

الأفعال التوجيهية[1]

ومن بين الأنماط التي توليها الدراسات التداولية اهتماما خاصا ما يُعرف بالأفعال التوجيهية، نظرا لدورها المباشر في تنظيم التفاعل بين المتكلّم والمخاطَب داخل الموقف التواصلي. ويُطلق الفعل التوجيهي على تلك «الأفعال الكلامية التي توجه المخاطَب إلى فعل شيء ما، وتضعه في موقع التزام أو دفع نحو القيام بسلوك محدد. ويحاول المتحدّث من خلال هذا النوع جعل الأشياء تحدث، بحيث يُطبِّق العالم مع المحتوى الكلامي الذي يتضمّن الفعل المطلوب من المستمع» (يول،١٩٩٦م:٥٤).

يستند الكميت في الأبيات التالية إلى الآية القرآنية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (الأحزاب / ٥٧) ليصور عاقبة

[1] Directives

أعداء أهل البيت يوم القيامة. فهو يرسم مشهدًا للأعداء وهم يزلّون على جسر الصراط، وتشهد جوارحهم على ما ارتكبوه من ظلم وبغض في الدنيا، ويبرز ندمهم العميق عند رؤية العذاب الإلهي وغضب الله، غير أن هذا الندم يكون عديم الفائدة، إذ لا يجديهم شيئًا، كما يبرز الإذلال والعقاب الذي يلاقونه نتيجة أفعالهم:

أأسلم ما تأتِى بِهِ من عَدَاوَةٍ وبُغضٍ لَهُم لا جَيرِ بَل هو أشجَبُ
متى تُفشِى يمينك في مَعَدٍّ يقُل تَصدِيقك العلماءُ جَيرِ
سَتَقرَعُ مِنها سِنٌّ خَزيانَ نادِمٍ إذا اليومُ ضَمَّ النَّاكثين العَصَبصَبُ
خَزايةُ أدركته بَعدَ جَولَتِهِ من جانِبِ الحَبلِ مَخلوطاً بِهَا الغَضَبُ

(الكميت ،٢٠٠٠م: ٥١٧).

(أي: مهما فعلت من عداء وبغض تجاه أهل البيت، فلن يكون لك من النجاة أو الهروب، بل سيؤدي ذلك إلى شدة العقوبة. عندما تفشي اليمين (أي القسم أو الإقرار) في الأمور، سيشهد العلماء على صدق هذه الفعلة أو أنها مخالفة للحق، أي أن أعمال البغض ستُكشف ويُدان صاحبها. يوم القيامة ستضرب العقوبة كل من خانه أو انكث عهدهم، وسيظهر الخزي والندم على هؤلاء الذين خانوا أهل البيت. العار والخزي سيدرك من ارتكب هذا البغض بعد مروره في هذه الدنيا، والجزاء سيكون مدموجًا بغضب الله، كعقوبة محتومة).

تمتد الأبيات إلى بُعدين متداخلين؛ فالغرض الحرفي يتمثل في الإخبار عن عاقبة العداوة والبغض لأهل البيت وما يترتب عليهما من خزي وندم وعقاب، بينما يتمثل الفعل الإنجازي الرئيس في فعل توجيهي غير مباشر، إذ لا يصدر الشاعر أمرا أو نهيا صريحا، وإنما يحثّ المتلقّي على ترك العداوة من خلال تصوير المصير الذي ينتظر من يمارسها. ويكشف اختيار هذا الأسلوب عن وظيفة تداولية تتجاوز مجرد الإخبار؛ فالشاعر يجعل مشهد الخزي والندم والعقاب وسيلة لتحذير المخاطب ودفعه إلى مراجعة موقفه، مستثيرا لديه الخوف من العاقبة بدل توجيهه إليها بصيغة مباشرة. وتؤدي الصور البلاغية، ولا سيما تصوير الندم والخزي ومخالطة الغضب للعقاب، دورًا في تقوية هذا التوجيه، إذ تجعل العاقبة المتوقعة حاضرة في ذهن المتلقّي وتمنح التحذير قوة تأثير أكبر. ويتحدد أثر هذا الفعل بحسب المتلقّي؛ فهو بالنسبة إلى المتعاطفين مع أهل البيت يؤكد قيمة موالاتهم، أما

بالنسبة إلى المخالف فيحمل تحذيرًا من الاستمرار في عداوتهم. وبذلك يتحول الإخبار عن الجزاء الأخروي إلى وسيلة توجيهية تسعى إلى التأثير في موقف المتلقّي وسلوكه، مع بقاء الفعل التوجيهي هو الفعل الإنجازي الرئيس في الأبيات.

في الأبيات التالة يتناول الكميت موضوع الموت، ويعتبره نهاية كل إنسان حي، مستندًا إلى ما ورد في القرآن الكريم، مثل قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٧). فهو يذكر أمثلة على من سبقونا في الحياة وماتوا، ليبيّن أن الموت قادم لا محالة لكل البشر، فهو يذكر أمثلة على من سبقونا في الحياة وماتوا، ليبيّن أن الموت قادم لا محالة لكل البشر، بغض النظر عن مكانتهم أو قدراتهم، فالموت لا يفرق بين غني وفقير، وبين وضيع وشريف، فجميعهم إلى مصير واحد، ولا مهرب لأحد من قدره:

مَضَوا سَلَفًا لا بُدَّ أنَّ مَصيرَنا إلَيهِم فَغادٍ نَحوَهُم مُتَأَوِّبُ
كذاك المَنَايا لا وَضيعًا رأيتُها تَخَطَّى ولا ذا هَيبة تَتَهَيبُ
(الكميت، ٢٠٠٠م: ٥٤٤-٥٤٣).

(أي: أولئك الذين سبقونا في الحياة قد رحلوا ومضوا، ولا مفرّ لنا من الموت، فنحن أيضا سنلحق بهم عاجلاً أو آجلًا. الموت يشمل الجميع سواء كانوا أعزاء أو وضيعين، فلا أحد ينجو منه، ولا أحد يحظى بالاستثناء، فهو يساوي بين الناس جميعا).

يتمثل الغرض الحرفي في الإخبار بحتمية الموت وشموله للناس جميعا، بينما يتجاوز القول هذا الإخبار إلى غرض إنجازي توجيهي، إذ يستثمر الكميت حقيقة الموت في تنبيه المتلقّي إلى ضرورة مراجعة سلوكه والاستعداد لمصيره المحتوم. ولا يأتي هذا التوجيه في صورة أمر أو نهي مباشر، وإنما يتشكل بصورة غير مباشرة من خلال التذكير بالموت واستحضار مصير من سبقوا. ويُعدّ هذا النمط من الخطاب تجسيدًا لما يسمّيه سيرل بالفعل الكلامي غير المباشر: فالصيغة النحوية للأبيات خبرية محضة تقرّر واقعة (حتمية الموت)، غير أن القوة الإنجازية الفعلية للقول توجيهية، إذ يستنتج المتلقّي من هذه الحقيقة الكونية ضرورة الاستعداد لها وإصلاح سلوكه، دون أن يُطلَب منه ذلك بصيغة صريحة. ويكشف اختيار هذا الأسلوب عن رغبة في حمل المتلقّي على التأمل والاتعاظ؛ فحين يقرر الشاعر أن «مصيرنا» هو مصير من مضى، وأن المنايا لا تميّز بين الوضيع وذي الهيبة، فإنه يزيل وهم الاستثناء ويجعل الموت حقيقة مشتركة

تستدعي الاستعداد لها. ويتحدد أثر هذا التوجيه بحسب المتلقّي؛ إذ يمكن أن يدفع المتلقي العام إلى الاتعاظ ومراجعة أفعاله، بينما يعزز لدى المتلقّي المتدين وعيه بمسؤوليته الأخلاقية أمام المصير الأخروي. ومن ثمّ، لا يقتصر الخطاب على تقرير حقيقة الموت، بل يحوّلها إلى وسيلة توجيهية تحثّ المتلقّي على الاعتبار وإصلاح السلوك قبل حلول الأجل، مع بقاء الفعل التوجيهي هو الفعل الإنجازي الرئيس في الأبيات.

الأفعال التقريرية[1]

تُعدّ الأفعال التقريرية من أهم الأنماط الإنْجازية التي تناولتها نظرية أفعال الكلام، وقد حظيت باهتمام خاص في الدراسات التداولية لما تؤديه من وظيفة معرفية اساسًا داخل الخطاب. وفي هذا السياق يُقصد بها «وصف الواقع والإبلاغ عن خبر يحتمل الصدق والكذب، ويلزم أن تكون الأفعال مطابقة للعالم الخارجي، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، مع ضرورة تحقق شرط الإخلاص ووضوح القضية» (بوجادي، ٢٠٠٩م: ٩٨).

تقوم الأبيات التالية على فعلٍ كلامي تقريري بحسب تصنيف سيرل، إذ يعرض الشاعر أقوال خصومه ويقدّمها على أنها ادعاءات باطلة، ثمّ يقدّم نفيًا صريحًا لها أمام المتلقي:

وقالُوا وَرِثناها أبانا و أَمَّنا ... وما وَرَّثَتهُم ذاك أُمٌّ ولا أَبُ
يرَونَ لَهُم فَضلا على النَّاسِ واجِبا ... سَفاها و حقُّ الهاشِمِينَ أَوجَبُ
ولكن مَوارِيثُ ابنِ آمِنَةَ الذي ... بِهِ دانَ شَرقِيٌّ لكم مُغَرِّبُ
(الكميت، ٢٠٠٠م: ٥٢٤).

(أي: قالوا: لقد ورثنا هذا الحق عن آبائنا وأمهاتنا، وما نقل إليهم هذا الحق أي أبٌ ولا أمّ وادعاءهم باطل. هؤلاء يرون أن لهم فضلًا مستحقًا على الناس، وهذا اعتقاد سخيف وسفيه، بينما حق الهاشميين أحق وأوجب. أما الميراث الحقيقي فهو ميراث ابن آمنة (النبي)، الذي به خضعت له الأمم من الشرق إلى الغرب، أي أن فضل الهاشميين مستمد من انتسابهم للنبي وليس من أي فضل ذاتي لهم).

عندما يقول الشاعر: «وقالوا ورثناها أبانا وأمّنا، وما ورّثتهم ذاك أم ولا أب»، يقوم بفعل إخباري ينقل قولًا موجودًا ثمّ يفنّده عبر تقرير حقيقة مقابلة؛ فالغرض الحرفي هو الإخبار بمقولتهم وبطلانها، أما الغرض الإنجازي فهو إضعاف حجّتهم

[1] Assertives

وإقناع المتلقي بأن دعواهم في الإرث والفضل خالية من الأساس. ولا يُفهَم اختيار الكميت للفعل التقريري هنا بوصفه مجرد وسيلة محايدة لعرض الحقيقة، بل هو خيار حجاجي مقصود يتناسب مع طبيعة المواجهة: فبدلا من الاكتفاء بالتوجيه المباشر أو التعبير عن غضبه من خصومه، يختار الشاعر أن يستحضر قولهم أولًا («وقالوا...») ثم يقابله بتقرير مضادّ («وما ورّثتهم...»)، فيضع الدعوى وتفنيدها في مواجهة مباشرة أمام المتلقي. وبذلك يتحول الفعل التقريري من مجرد إخبار إلى بنية حجاجية ثنائية (دعوى/نقض) تمنح نفي الشاعر قوة إقناعية أكبر من التقرير المجرّد، لأنها تعرض للمتلقي طرفي القضية معا، مع توجيهه ضمنيا نحو ترجيح موقف الشاعر. ويتابع الشاعر في قوله: «يرون لهم فضلًا على الناس واجبًا سفاهًا وحقّ الهاشميين أوجبُ»، حيث يصف واقعًا يتمثل في اعتقاد هؤلاء بعلو فضلهم، ويقدّم حكمًا تقييميًا من خلال وصف هذا الاعتقاد بـ«السفاهة»، وفي الوقت نفسه يثبت حقيقة مضادة هي أحقية الهاشميين بالفضل. وفي البيت الأخير: «ولكن مواريث ابن آمنة الذي به دان شرقيٌّ لكم ومغربُ»، يستخدم الإخبار التأكيدي لإثبات أن الميراث الحقيقي هو ميراث النبي، وأن مكانة الهاشميين، في تصوّر الشاعر، متصلة بانتسابهم إلى الرسول. ويختلف أثر هذا الفعل التقريري بحسب المتلقي؛ فأمام الخصوم، يؤدي وظيفة دحضية تتمثل في نقض الأساس الذي تقوم عليه دعواهم، أما أمام أنصار آل هاشم والمتلقين المتعاطفين معهم، فيؤدي وظيفة تثبيتية، إذ يعزز القناعة بأحقية الهاشميين ويدعم الموقف الذي يتبناه الشاعر. وبذلك لا يقتصر الفعل التقريري على نقل الأقوال، بل يتحول إلى أداة حجاجية لإعادة ترتيب الدعوى ونقضها، وبناء موقف الشاعر على ما يقدّمه من أدلة تاريخية ودينية.

الأفعال الإعلانية[1]

وعند الحديث عن الأصناف التي تمتاز بقدرتها على إحداث أثر مباشر من خلال التلفّظ نفسه، يبرز الفعل الإعلاني بوصفه نمطًا لغويًا يرتبط وقوعه بتحقق اللفظ. يشمل الفعل الإعلاني على الأفعال الكلامية التي «تُحدث تغييرًا حقيقيًا في العالم الخارجي بمجرد التعبير عنها» (سيرل، ١٩٩٩م: ١٧). وهي الأفعال التي يكون فيها إيقاع القول مقارنًا لحدوث الفعل، إذ يُنجَز الحدث بمجرد النطق به، وتتسع دائرتها لتشمل أفعال البيع والشراء، والهبة والوصية، والوقف والإجارة، والإبراء من

[1] Declarations

الدين، والتنازل عن الحق، والزواج والطلاق، والإقرار والدعوى والإنكار، والقذف، والوكالة... إلخ (نحلة، ٢٠٠٢م: ٩٨).

ينتمي البيت التالي إلى الأفعال الكلامية الإعلانية في نظر سيرل، لأن الشاعر لا يكتفي فيه بمجرد الإخبار عن موقفه، بل يُنشئ من خلال القول نفسه حالةً جديدة ويجعل ولاءه لبني هاشم موقفاً مُعلَناً وذا قوة إنشائية:

بَنِي هاشِمٍ رَهطِ النَّبِيّ فإنّني بهم ولَهُم أرضَى مِرَاراً و أَغْضَبُ
لَهُم رُتَبٌ فَضلٌ على النَّاسِ كلِّهم فَضائِلُ يستَعلِي بِهَا المُتَرَتِّبُ
(الكميت، ٢٠٠٠م: ٥١٥).

(أي: بني هاشم، هم أقرباء النبي، وأنا أقر لهم درجات من الفضل تفوق جميع الناس. ومن أجلهم أفرح وأغضب مرات عديدة، فهم يمتلكون فضائل تجعل صاحب المرتبة يعلو على الآخرين).

حين يقول الشاعر: «بني هاشمٍ رهطِ النبي فإنني بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضَبُ»، لا يقتصر قوله على وصف مشاعره تجاه بني هاشم، وإنما يحوّل هذه المشاعر إلى موقف معلن أمام المتلقّي؛ فهو يصرّح بانتمائه الوجداني إليهم، ويجعل هذا الانتماء جزءا ظاهرا من هويته في الخطاب. ومن ثمّ، فإن نتيجة التلفظ لا تتمثل في إنشاء وضع مؤسسي جديد، وإنما في إخراج الموقف من حيّز الشعور الخاص إلى حيّز الإعلان والتداول داخل الخطاب. ويرتبط اختيار الكميت لهذا الأسلوب بموقع البيت في بناء خطابه؛ إذ يقدّم الشاعر موقفه من بني هاشم في صورة معلنة منذ بداية هذا المقطع، بحيث لا يبقى ولاؤه لهم أمرا مستنبطا من الأبيات اللاحقة، بل يصبح موقفا مصرحا به يمكن أن تُقرأ في ضوئه مواقفه الأخرى. ولذلك تؤدي الصياغة الإعلانية هنا وظيفة تأسيسية في بناء صورة المتكلم، من خلال تحديد موقعه من الممدوحين قبل الانتقال إلى بيان مشاعره ومواقفه تجاههم. وهذا النوع من القول لا يهدف إلى نقل معلومة فحسب، بل إلى إحداث أثر تداولي يتمثل في تثبيت موقف الشاعر وإبرازه أمام المتلقّي، حيث يضع نفسه صراحة في صفّ بني هاشم، ويربط هذا الموقف بانتسابهم إلى النبي. ويتمثل الغرض الحرفي في التصريح بأن مشاعر الشاعر من رضا وغضب مرتبطة ببني هاشم، وربط ولائه بهم بوصفهم رهط النبي، بينما تتمثل القوة الإنجازية في إعلان هذا الموقف وتثبيته في الخطاب، لا في إنشاء التزام تعهدي أو وضع مؤسسي

جديد. ويختلف الأثر التداولي لهذا الإعلان بحسب المتلقّي؛ فأمام بني هاشم والمتعاطفين معهم، يمكن أن يؤدي التصريح بالولاء إلى تأكيد الموقف المشترك وإبراز ثبات العلاقة الوجدانية بهم، بينما يقدّم أمام المتلقّي العام صورة واضحة عن موقع الشاعر من بني هاشم، بحيث يمكن أن تُفهم مواقفه اللاحقة في ضوء هذا الانتماء المعلن. أما بالنسبة إلى المخالفين، فيكشف القول بصورة صريحة عن موقف الشاعر منهم، ويجعل ولاءه لبني هاشم جزءا ظاهرا من هويته الخطابية.
وفي البيتين التاليين، يوظّف الشاعر قولا ذا وظيفة إعلانية في الخطاب الأدبي، إذ لا يقتصر على ذكر فضائل شخصيات محدّدة، بل يحوّل هذا الذكر إلى موقف معلن يرسّخ صورتهم بوصفهم أصحاب فضل ومكانة دينية وأخلاقية:

أولاك نَبِيّ اللهِ مِنهُم و جَعفَرٌ وحَمزَةُ لَيثُ الفَيلَقينِ المُجَرَّبُ
وَنِعمَ وَلِيُّ الأمرِ بَعدَ وَلِيهِ ومُنتَجَعُ التَّقوى و نِعمَ المُؤَدِّبُ
(الكميت، ٢٠٠٠م: ٥٤٠-٥٣٩).

(أي: أولئك من بني هاشم هم من أحفاد النبي، ومن بينهم جعفر وحمزة، القائد الشجاع المعروف بين الفيلقين. حقًا إنه ولي الأمر الصالح بعد وليّه، ومقامه مرتع للتقوى وفضائل عالية، وهو نموذج للأدب والخلق الحسن).

في البيت الأول، لا يكتفي الشاعر بمجرد وصف نسب أو ذكر أسماء، بل يجمع بين الانتساب إلى النبي وبين صفات الفضل والشجاعة والتقوى، فيحوّل ذكر الشخصيات إلى وسيلة لتثبيت صورة إيجابية عن مكانتهم في الخطاب. ولا تتمثل وظيفة هذا القول في إنشاء مكانة جديدة لهم، وإنما في إعلان رؤية الشاعر لهذه المكانة وتقديمها بصورة صريحة أمام المتلقّي. ويتضح هذا البعد بصورة أكبر في قوله: «ونِعمَ وليُّ الأمرِ بعدَ وليِّه»، إذ لا يقدّم الشاعر مجرد وصف عابر، بل يصوغ حكما تقويميا صريحا بشأن استحقاق الشخصية التي يشير إليها بالولاية. ومن ثمّ، يكتسب القول قوة إعلانية خطابية؛ لأنه ينقل التقييم من موقف داخلي لدى الشاعر إلى حكم معلن يمكن أن يتلقاه الآخرون ويبنوا عليه موقفهم من الشخصية الممدوحة. الشاعر لا يكتفي بذكر الشخصيات الهاشمية، بل يربط مكانتها بسلسلة من القيم التي يريد تثبيتها في ذهن المتلقّي، مثل القيادة والتقوى والشجاعة والتأديب. وبذلك تؤدي الصياغة الإعلانية وظيفة تأسيسية في بناء صورة الممدوح؛ إذ تجعل هذه الصفات جزءا من الصورة العامة التي يقدمها الشاعر

عنه، بدل أن تبقى أوصافا متفرقة لا يجمعها إطار واحد. ويتمثل الغرض الحرفي في ذكر النبي وجعفر وحمزة والإشادة بولي الأمر وبيان صفاتهم ومكانتهم، أما الغرض الإنجازي فيتمثل في إعلان موقف تقويمي يثبت هذه المكانة في الخطاب، ويقدّم الشخصيات المذكورة إلى المتلقّي في إطار من الفضل والقيادة والتقوى. وتؤدي ألفاظ المدح، مثل «نِعمَ وليُّ الأمر» و«نِعمَ المؤدّب»، دورًا في تقوية هذا الإعلان، لأنها لا تكتفي بالإخبار عن صفات الممدوح، بل تتضمن حكمًا تقويميًا صريحًا يعبّر عن موقف الشاعر منه. ويتحدد الأثر التداولي لهذا الإعلان بحسب المتلقّي؛ فبالنسبة إلى المتعاطفين مع أهل البيت، يمكن أن يسهم في تعزيز صورة الشخصيات المذكورة بوصفها نماذج للفضل والقيادة والتقوى، بينما يقدّم أمام المتلقّي العام تصورًا متكاملًا عن المكانة التي يمنحها الشاعر لهذه الشخصيات. أما المخالفون، فيواجهون من خلاله موقفا معلنًا يختلف عن التصورات التي ينتقدها الشاعر، من غير أن يعني ذلك أن القول يُنشئ لهم أو عليهم وضعا مؤسسيا جديدا بمجرد التلفظ به.

نتائج البحث

تكشف القراءة التداولية لبائية الكميت بن زيد الأسدي أن الأفعال الكلامية لم تكن عنصرا تزيينيا في بناء الخطاب الشعري، بل أسهمت في تنظيم علاقته بالمتلقّي وتوجيه مساره الحجاجي، من خلال الانتقال من مجرد عرض الوقائع والصفات إلى تثبيت المواقف والتعبير عنها والدفاع عنها والتأثير في المتلقّي.

وإجابة عن السؤال الأول المتعلق بدور الأفعال الكلامية في تشكيل البنية الحجاجية لخطاب الكميت، تكشف نتائج الدراسة أنّ الفعل الالتزامي هو الفعل الأكثر مركزية في بناء هذه البنية؛ إذ لا يقتصر دوره على التعهد بالدفاع عن آل هاشم في مواضع متفرقة، بل يشكّل المحور الذي تتفرّع عنه بقية الأفعال وتتراكم حوله دلالاتها: فالفعل الإعلاني يهيّئ الإطار الهوياتي التي ينبني عليها الالتزام اللاحق؛ والفعل التعبيري يمنح هذا الالتزام كثافته الانفعالية ويحوّله من تعهد بارد إلى موقف معاش؛ والفعل التوجيهي يوظَّف في الغالب توظيفًا غير مباشر لخدمة الغاية نفسها، أي حمل المتلقي على تبني الموقف الذي يعلنه الالتزام. أما الفعل التقريري، فيؤدي وظيفة إسنادية تمنح الالتزام والإعلان أساسا معرفيا يستندان إليه في دحض دعاوى الخصوم. وبذلك، فإن البنية الحجاجية لخطاب الكميت لا تقوم على فعل واحد منعزل، بل على شبكة من الأفعال يتصدّرها الالتزام بوصفه الفعل الذي يمنح باقي الأفعال غايتها المشتركة: ترسيخ الموقف السياسي والعقدي وتثبيته أمام مخاطبين متعددين في آنٍ واحد.

أما السؤال الثاني المتعلق بتداخل الغرض الحرفي والغرض الإنجازي، فتُظهر الأمثلة المدروسة أنّ هذا التداخل لا يحدث بصورة عشوائية، بل يتخذ في الغالب صورة الفعل الكلامي غير المباشر: فصيغة الإخبار الظاهرة تحمل قوة إنجازية مغايرة لظاهرها (التزاما، أو توجيها، أو تعبيرا تعظيميا)، وكذلك الاستفهام الإنكاري الذي يحمل قوة تعبيرية توبيخية لا استفهامية. ويكمن أثر هذا التداخل في أنه يضاعف القوة الإقناعية للخطاب؛ ذلك أنّ المتلقي، حين يُترك لاستنتاج القوة الإنجازية الحقيقية من وراء الصيغة الحرفية، يشارك ضمنيا في إنتاج المعنى ويصل إلى الموقف الذي يريده الشاعر وكأنه استنتاج ذاتي لا فرض عليه، وهو ما يمنح خطاب الكميت الحجاجي فاعلية تفوق ما يحققه التصريح المباشر بالموقف نفسه.

ويُظهر الفعل الالتزامي تعهّداته المتكررة بالدفاع عن آل هاشم، بينما تكشف الأفعال الإعلانية عن قدرته على تأسيس مواقف وقيم جديدة، فيتحول الشعر إلى ساحة إعلان وموقف سياسي صريح. أما الأفعال التعبيرية فتعطي النص عمقه الانفعالي، معبّرة عن الغضب والأسى والفخر والاعتزاز، فتصبح مشاعر الشاعر جزءا من الحجاج التداولي الذي يعزّز سلطته الخطابية. وتُكمّل الأفعال التوجيهية هذا البناء من خلال استمالة المتلقي وترغيبه وترهيبه، ليصبح الشعر خطابا إرشاديا وتحريضيا ذا أثر اجتماعي واضح. ولم يكن هذا الخطاب معزولا عن سياقه التاريخي، بل جاء استجابة لواقع سياسي مضطرب، عبر فيه الشاعر عن موقفه من الصراع على الخلافة، موزعا خطابه على مخاطبين متمايزين في كل موضع تقريبا: مخاطب مؤيد يراد تثبيت يقينه وتحصينه، ومخاطب مخالف يراد ردعه أو رفض حجته، وهو ازدواج المخاطب الذي شكّل، كما بيّنت الأمثلة، أحد أهم أسباب فاعلية هذا الخطاب الحجاجية.

المصادر

-القرآن الكريم

- الأسدي، الكميت بن زيد(٢٠٠٠)، ***ديوان***، جمع، شرح وتحقيق: محمد نبيل طريفي، بيروت: دار صادر.

- كنون، أحمد أحمد أحمد حسن(٢٠١٥)، ***التداولية بين النظرية والتطبيق***، الطبعة الأولى، مصر؛ جامعة القاهرة دار النابغة للنشر والتوزيع.

-الشايب، أحمد(١٩٧٦)، ***تاريخ الشعر السياسي***، الطبعة الخامسة، مصر: علوم النشر والطبع.

-الصعيدي، عبدالمتعال(١٩٣٨)، *الكميت بن زيد الأسدي*، **مجلة الرسالة**، العدد٢٣٦.

-الفاخوري، حنا(١٣٨٧)، ***تاريخ الأدب العربي***، طهران: توس.

-أوستين، جون(١٩٦٢)، ***نظرية أفعال الكلام***، المغرب: الدار البيضاء.

-بوجادي،خليفة(٢٠٠٩)، ***في اللسانيات التداولية (محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم)***، الطبعة الأولى، الجزائر؛بيت الحكمة للنشر والتوزيع.

-زرقاني، سيدمهدي والهام أخلاقي(١٣٩١)، *تحليل ژانر شطح بر اساس نظريه كنش كفتار*، **مجله ادب عرفاني**، ش٦، صص ٨٠-٦١.

-زيدان، جرجي (١٩٤٦)، ***تاريخ آداب اللغة العربية***، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، مصر: مطبعة الهلال.

-سيرل، جون(١٩٦٩)، ***العقل واللغة والمجتمع***، الجزائر: الدار العربية للعلوم.

-طبري، محمدبن جرير(١٣٨٧)، ***تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك***، الجزء السابع، القاهرة: دارالمعارف.
-قصّاب، وليد. (٢٠٠٩). **مناهج النقد الأدبي الحديث** ،الطبعة الثانية. دمشق: دار الفكر.
-الكيلاني، فالح نصيف الحجية. (د.ت.). موسوعة شعراء العربية: دراسة موسوعية لشعراء العصر الأموي، الجزء الأول، عمان: دارالدجلة.
- مدلل ، نجاح (٢٠٢١)، *نظرية أفعال الكلام بين الدراسات الغربية والتراث العربي*، الجزائر، جامعة الوادي: **مجلة علوم اللغة العربية وآدابها**. المجلد ١٣، العدد ٣، الصفحات ١٢٠٨-١٢١٨.
-نحلة، محمود أحمد(٢٠٠٢)، ***آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر***، اسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
-يول، جورج(١٩٩٦)، ***التداولية***، ترجمة: قصي العتابي، الطبعة الأولى، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

-Derrida, J. (1988). **Limited Inc**, Evanston, IL: Northwestern University Press. [in English].

-Searle, J. R. (1969). **Speech acts: An essay in the philosophy of language**. Cambridge: Cambridge University Press. [in English].

Sources

Al-Asadi, K. (2000). **Diwan**. Collected, edited, and annotated by Muhammad Nabil Trefi. Beirut: Dar Sader. [in Arabic].
-Al-Fakhuri, H. (1387). **Tarikh al-Adab al-‘Arabi [History of Arabic Literature]**. Tehran: Taws. [in Arabic].
-Al-Sa‘idi, A. al-M. (1938). *Kumayt ibn Zayd al-Asadi* [Al-Kumayt ibn Zayd al-Asadi]. ***Majallat al-Risalah*** **[Al-Risalah Journal],** Issue 236. [in Arabic].
-Al-Shayeb, A (1976). **Tarikh al-Shi‘r al-Siyasi [History of Political Poetry]**, 5th ed. Cairo: ‘Ulum al-Nashr wa al-Tiba‘a. [in Arabic].
-Al-Tabari, M. (١٣٨٧). **Tarikh al-Tabari: Tarikh al-Rusul wa al-Muluk [The History of al-Tabari: History of Prophets and Kings],** Vol. 7. Cairo: Dar al-Ma‘arif. [in Arabic].
-Austin, J. (1962). **How to Do Things with Words [Nazariyat Af‘al al-Kalam, Arabic translation by Abdelkader Qanini]**. Morocco: Dar al-Bayda. .’ [in Arabic].
-Boujadi, Kh. (2009). **Fi al-Lisaniyat al-Tadawuliyya: Muhawala Ta’siliyya fi al-Dirasah al-‘Arabiyya al-Qadimah [On Pragmatics: A Foundational Attempt in Classical Arabic Studies**], 1st ed. Algiers: Bayt al-Hikmah Publishing and Distribution. . [in Arabic].
Derrida, J. (1988). **Limited Inc**, Evanston, IL: Northwestern University Press. [in English].

-Kannon, A. (2015). **Al-Tadawuliyya bayn al-Nazariyya wa al-Tatbiq [Pragmatics between Theory and Practice]**, 1st ed. Cairo: Cairo University, Dar al-Nabigha for Publishing and Distribution. [in Arabic].
-Nahla, M. (2002). **Afaq Jadida fi al-Bahth al-Lughawi al-Mu‘asir [New Horizons in Contemporary Linguistic Research]**. Alexandria: Dar al-Ma‘rifa al-Jami‘iyya. [in Arabic].
Najah, M. (2021). *Speech act theory between Western studies and Arab heritage* [Nazariyat Af‘al al-Kalam bayn al-dirasa al-Gharbiyya wa al-turath al-‘Arabi]. Algeria, University of El Oued: ***Majallat ‘Ulum al-Lugha al-‘Arabiyya wa Adabuha*** **[Journal of Arabic Language and Literature],** 13(3), 1208–1218. [in Arabic].
-Searle, J. (1969). **Mind, Language and Society [‘Aql wa al-Lugha wa al-Mujtama‘, Arabic translation by Saeed al-Ghanmi].** Algiers: Dar al-Arabiyya lil-Ulum. [in Arabic].
Searle, J. R. (1969). **Speech acts: An essay in the philosophy of language**. Cambridge: Cambridge University Press. [in English].
-The Holy Qur’an.
-Yule, G. (1996). **Pragmatics [Al-Tadawuliyya, Arabic translation by Qusay al-‘Atabi]**, 1st ed. Beirut: Dar al-Arabiyya lil-Ulum. [in Arabic].
-Zaidan, J (1946). **Tarikh Adab al-Lugha al-‘Arabiyya [History of Arabic Literature]**, Vol. 1, 3rd ed. Cairo: Matba‘at al-Hilal. [in Arabic].
-Zarqani, S. M., & Elham Akhlaqi. (2012). *Shath genre analysis based on speech act theory* [Tahlil-e janr-e shath bar asas-e nazariye-ye konesh-e goftar]. ***Majallah Adab Erfani*** **[Journal of Mystical Literature],** Issue 6, 6180. [in Persian].